

مدخل إلى دراسة نضال الجماهير

ضد الاستعمار والإمبريالية والصهيونية في الساحة الفلسطينية

المحتويات:

مقدمة: التناقض الرئيسي والأساسي لتحديد مراحل النضال من أجل حل هذا التناقض

1. 1897-1908: عجز القيادات الإقطاعية في الدفاع عن الوطن

فشلت محاولات التمهيد لنمو رأسمالي

وهبات فلاحية نتيجة لتكثيف استغلال الفلاحين

2. 1908-1917: القيادات الإقطاعية والبرجوازية تقود الجماهير في الصراع ضد البرجوازية وتستغل الإمبريالية هذا الصراع لصالحها في اكتمال اقتسام الوطن العربي
 3. 1918-1929: القيادات الإقطاعية تحاول أن تتركب موجة الجماهير وأن توجهها ضد الصهيونية فقط وليس ضد الإمبريالية البريطانية.
 4. 1930-1939: زيادة إفقار الفلاحين والبدو ونمو الطبقة العاملة يعطي زخماً للحركة الجماهيرية.
 5. 1940-1948: انحسار النضال الجماهيري وقمعه من قبل الصهاينة، واحتوائه من قبل الرجعيين العربية.
 6. 1948-1967: البرجوازية تبدأ بإنهاء الأنماط ما قبل الرأسمالية على أكتاف الجماهير وتتخذ في بادئ الأمر طابعاً تقديمياً ولكن حرب 1967 تكشف عجزها.
 7. 1967-1976: اتضح ميل البرجوازية إلى الارتباط بالاحتكارات، وضعف البرجوازية غير المرتبطة وبدايات البحث عن حل جذري.
- خاتمة:** عجز الأحزاب الشيوعية في قيادة النضال الوطني.

مقدمة:

إن فلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي، ولم توجد كمساحة سياسية منفصلة نسبياً عن الساحات المحيطة إلا ثلاثين عاماً (فترة الاحتلال الإمبريالي البريطاني). إن التناقض الرئيسي في فلسطين كما في الوطن العربي طيلة عهد سيطرة الاستعمار والإمبريالية على بلادنا هو بين الاستعمار للإمبريالية (بما فيه مخفرها الصهيوني) وركائزها العربية من إقطاع ورأسمال مرتبط، وبين شعبنا من فلاحين وبدو وعمال وفئات متوسطة مدنية وريفية ورأسمالية غير مرتبطة بالإمبريالية.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار:

- القوى الطبقية المحركة للنضال.
- القوى الطبقية القائدة للنضال.
- بنية الأنظمة العربية المجاورة التي تؤثر وتتأثر بنضالنا.
- وضع الثورة العالمية التي نحن جزء لا يتجزأ منها.
- وضع الاستعمار والإمبريالية بشكل عام وفي بلادنا بشكل خاص

ويمكننا أن نميز الفترات السبع التالية في نضال جماهيرنا من أجل هذا التناقض الرئيسي:

1. 1798 - 1908:

وتبتدى هذه الفترة بغزوة نابليون لبلادنا تسع سنوات بعد استلام البرجوازية الفرنسية السلطة، هذه الغزوة التي تمثل الصدام المسلح البارز بين الرأسمالية النامية في أوروبا والإقطاع المتدهور في بلادنا والذي سبقته مناوشات

محدودة أدت إلى فرض نفوذ البرتغال وأسبانيا وبريطانيا على بعض السواحل العربية. لقد تصدت جماهيرنا لغزوة نابليون وأعطت في عكا مثلاً رائعاً للبطولة والصمود. ولكن تفهقر نابليون لم يكن (أساساً) نتيجة نضال جماهيرنا بقيادة الإقطاع بل كانت نتيجة التناقضات بين الدول الاستعمارية وعدم اتفاقها حينذاك على اقتسام المنطقة.

وقامت محاولات عديدة في مواجهة الغزو الاستعماري الرأسمالي لإجراء الإصلاحات من أجل التمهيد لنمو رأسمالي، وشملت رقعة فلسطين بمحاولات محمد علي 1805-1840. وإصلاحات محمود الثاني 1826 والتنظيمات 1840-1870 وإصلاحات عبد الله باشا في عكا 1817-1840 هذه الإصلاحات التي توازيتها في مناطق أخرى من الوطن العربي إصلاحات الأمير بشير في لبنان في بداية القرن التاسع عشر، وداود باشا في العراق 1817-1831 وباجي أحمد في تونس 1837-1855.

وقد قامت هذه المحاولات على أكتاف كادحي بلادنا، إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل الذي تمثل في فلسطين بطرد الدول الاستعمارية لإبراهيم باشا وإرغامه على الانسحاب إلى مصر وتقليص جيشه مما أدى إلى انهيار الصناعات المصرية التي كانت في غالبيتها عسكرية.

وبتغلغل الرأسمال الاستعماري في بلادنا وارتباط السوق المحلية بالسوق الرأسمالية زاد استغلال الفلاحين فهبوا في منتصف القرن التاسع عشر في انتفاضات عديدة أجهضت عن طريق قمع الإقطاعيين وتدخل المستعمرين مباشرة لصالح الإقطاعيين واستغلال الخلافات في صفوف الفلاحين.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إذ أدى إلى بيع الإقطاعيين الخونة لقسم من الأراضي العربية للصهاينة إلى طرد الفلاحين، وهب الفلاحون ضد الاستيطان الصهيوني، حيث هاجم الفلاحون المطرودون من الخضيرة وملبس

المستوطنين الصهاينة الذين حلوا محلهم وذلك عام 1886، 1892، 1908، ووقف الفلاحون ضد هجرة الصهاينة وضد بيع الأراضي لهم.

2. 1908 - 1917:

تبدأ هذه الفترة بنجاح البرجوازية التركية في المشاركة في السلطة العثمانية وبنضال جماهيرنا ضد محاولات التتريك. وشهدت هذه الفترة بداية الطرح القومي، فشارك أبناء فلسطين في التنظيمات القومية العربية مثل المنتدى الأدبي (1911) الذي عمل على "توثيق عرى الإخاء بين العرب على اختلاف أجناسهم وأديانهم"، وجمعية العربية الفتاة (1911) "للنهوض بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية"، والمؤتمر العربي الأول (باريس 1913) "من أجل حقوق العرب في الدولة العثمانية". وقد قدم شعبنا العديد من الشهداء في مواجهة قمع السفاح جمال باشا.

وتنتهي هذه الفترة بالحرب العالمية الأولى التي دفعت جماهيرنا أثناءها مئات الآلاف من الضحايا نتيجة الجوع والأوبئة التي عمت البلاد، والتي تم على إثرها اكتمال اقتسام الوطن العربي بين الدول الاستعمارية، إذ كانت بريطانيا قد احتلت الخليج العربي 1820، واحتلت فرنسا الجزائر 1830، واحتلت بريطانيا عدن 1839، واحتلت فرنسا تونس 1881، واحتلت بريطانيا مصر 1882، والسودان 1899، واحتلت إيطاليا ليبيا 1911، واحتلت فرنسا مراكش 1912. والآن وعلى أثر الحرب العالمية الأولى احتلت فرنسا سوريا ولبنان، كما احتلت بريطانيا فلسطين وشرق الأردن والعراق 1917.

وفي فلسطين التي اقتطعت من بلاد الشام تبنت الإمبريالية البريطانية مشروع استيطان الصهاينة وذلك من أجل تأمين سيطرتها.

لم تكن فلسطين والوطن العربي المناطق الوحيدة التي وقعت تحت السيطرة الاستعمارية الإمبريالية، فتوسع الرأسمال الأوروبي بحثاً عن السوق والمواد الخام والأيدي العاملة الرخيصة شمل معظم العالم. وقد أدى الاستعمار إلى إبادة الشعوب (الهنود الحمر مثلاً) واستعبادها حرفياً (إفريقيا مثلاً) أو مجرد استغلالها كما حصل في وطننا العربي. وعدم قدرة المستعمرين على إبادة شعبنا، واستعباده يعود أساساً إلى أن القوى المنتجة في بلادنا كانت أكثر تطوراً منها في أمريكا من الهنود الحمر أو أدغال إفريقيا.

3. 1918 - 1929:

تبتدئ هذه الفترة باحتلال الإمبريالية البريطانية لجزء من بلاد الشام وإعلان فلسطين كساحة سياسية منفصلة نسبياً عن الساحات المحيطة. وبما أننا سنركز في هذه الدراسة على نضال جماهيرنا ابتداءً من هذه الفترة (والى نهاية الاحتلال البريطاني)، فلننظر إلى البنية التحتية للمجتمع إبان الاحتلال الإمبريالي.

إن نمط الإنتاج إبان الاحتلال البريطاني الإمبريالي كان نمطاً شبه إقطاعي مع بقايا إنتاج رعوي وبدايات رأسمالية. فقد حل محمد علي الإقطاع العسكري 1833-1835 وكرست ذلك الدولة العثمانية عام 1839 (خط كلخانة). وبدأت بجمع الضرائب عن طريق البيروقراطية المدنية وتقوم بالتجنيد الإجباري. وأدت هذه الإجراءات إلى تقليص الملكية الصغيرة لصالح الملكية الكبيرة والأميرية (ملكية الدولة)، إذ اضطر الكثير من الفلاحين أن يسجلوا أرضهم باسم الإقطاعيين والتجار هرباً من الضرائب والجندية، كما أخذت الدولة تستولي على أراضي الفلاحين الذين لم يدفعوا ضرائبهم.

ففي عام 1922 تركزت نصف الأراضي المزروعة في فلسطين في يد 250 ملاكاً وكان الملاكون الكبار يعيشون في المدن ويؤجرون الأرض لمتعهد ويتعاملون مع الفلاحين عن طريق وكيل. وكان الملاك يفتتعون خمس المحصول رسمياً ولكن عملياً كانت تصل حصته إلى الثلثين. وكان من كبار الملاكين آل سرسق (230 ألف دونم) والحسيني (50 ألفاً) وعبد الهادي (60 ألفاً) وسلام والنشاشيبي والشوا والدجاني والفاروقي ...

أما الفلاحون فكانوا المنتجين الأساسيين في المجتمع (عمل 57% من القوى العاملة في الزراعة) ومعظمهم كانوا معدمين أو فقراء، ومما زاد في إفقارهم تبعيتهم للسوق الرأسمالية العالمية وطردهم من أراضيهم من قبل الصهاينة علاوة على تبعيتهم للإقطاعي.

وعلى هامش النظام الإقطاعي عاش البدو (60 ألفاً) معتمدين على الرعي أساساً وكذلك على الصناعات الحرفية الرعوية وعلى الزراعة بشكل هامشي. وعلاوة على ذلك اعتمد البدو على فرض القوة أو الغزو والسلب لسد حاجاتهم. ويمكننا التمييز بين شيوخ القبائل وجماهير البدو من حيث الإنتاج وتوزيع الفائض والعلاقة بالطبقات الأخرى في المجتمع.

أما التراكم الرأسمالي فقد كان بطيئاً وذلك لشدة نهب وسلب الإقطاعيين وهيمنة الرأسمال الاستعماري الإمبريالي. فحتى 1922 كانت الصناعة بدائية مرتبطة بالزراعة وتستخدم في الغالب المواد الزراعية كمواد أولية. كذلك كانت التجارة الداخلية ضعيفة محدودة وتقتصر على التبادل الشبيه بالمقايضة في الأسواق الأسبوعية. ونما رأسمال (أساساً) تجاري مرتبط بالرأسمال الإمبريالي.

إذاً لم توجد طبقة عاملة صناعية وكان العمال إما عمال خدمات أو إنتاج حرفي صغير، وكان يعيش أقل من 10% من المجتمع من الصناعات والحرف.

وعلاوة على الملاكين الكبار والفلاحين الفقراء والمعدمين والبدو، وعلاوة على الرأسماليين الكبار والعمال، وجدت الفئات المتوسطة المدنية والريفية فئات وسيطة بين الطبقتين الرئيسيتين في كل نمط الإنتاج الإقطاعي والرأسمالي. وتشمل هذه الفئات المهنيين والحرفيين والموظفين والجنود وصغار التجار والفلاحين الأغنياء والمتوسطين.

وفي هذه الفترة كانت الطبقة شبه الإقطاعية هي السائدة. ومن الإقطاعيين ممن خانوا الوطن وباعوا الأرض للصهاينة وملأوا جيوبهم وسببوا طرد الفلاحين والبدو من أراضيهم (سرسق مثلاً)، ومنهم من ارتبط بشكل سافر بالمستعمرين (النشاشيبي مثلاً) ومنهم من ركب موجة الجماهير من أجل المحافظة على موقفه واحتواء المد الجماهيري (الحسيني).

وقد رفع الإقطاعيون شعار معارضة الهجرة والاستيطان الصهيوني واكتفوا بالاحتجاج إلى "الصديقة" بريطانيا ومطالبتها بإنصافهم ضد الصهيونية متجاهلين الارتباط العضوي للصهيونية بالإمبريالية.

وخلال هذه الفترة لعب الدور القيادي في البلاد اللجان التنفيذية بقيادة الملاك الكبير موسى كاظم الحسيني الذي انتخب في المؤتمر الفلسطيني الثالث عام 1920 وحافظ على منصبه إلى حين وفاته عام 1934.

وقد انبثق المؤتمر عن اللجان الإسلامية المسيحية التي أوعزت المخابرات البريطانية إلى المتعاملين معها بإنشائها في كافة المدن الفلسطينية.

وشملت هذه اللجان علاوة على الإقطاعيين بعض الرأسماليين التجاريين خاصة المرتبطين بالإمبريالية البريطانية. وفي عام 1918 تقدم بعض الرأسماليين والإقطاعيين في حيفا إلى الحاكم العسكري بطلب تشكيل حزب باسم "الحزب العربي الموالي لبريطانيا"، فسمح الحاكم العسكري البريطاني بذلك وعبر عن ارتياحه، وقد رأس الحزب أمين عبد الهادي، ولكن الحزب سرعان ما حل نفسه

وعمل تحت اسم الجمعية الإسلامية المسيحية، الاسم الذي يخفي الارتباط بالسافر بالإمبريالية البريطانية.

أما الجماهير العربية فقد اتسمت معارضتها للاحتلال الإمبريالي بالعنف وركزت على مهاجمة الصهاينة، إذ ترتب على تنفيذ مشروعهم ليس استغلال الشعب فحسب، بل اقتلعه من أرضه واغتصاب وطنه. وكانت هذه النضالات العنيفة في غالبيتها خارج نفوذ وإرادة القيادات الإقطاعية والبرجوازية المرتبطة. فبينما توجهت القيادات "للصديقة" بريطانيا تتوسل إليها إنصافها من الصهاينة، توجهت الجماهير بعفويتها إلى العنف فلم تمض فترة دون الهجوم المسلح على مستعمرات الصهاينة (في المطلة والخضيرة والعفولة ورحابوت وبتاح تكفا وديران واليهودية ويافا ووادي جزرائيل والقيسارية). وشهدت هذه الفترة ثلاث هبات جماهيرية واسعة النطاق، هبة النبي موسى 1920، وهبة يافا 1921، وهبة البراق 1929.

ففي الرابع من نيسان 1920 تحول موسم النبي موسى الذي تتوافد إليه الوفود من كافة أنحاء البلاد إلى مظاهرة وطنية صاخبة كانت تتادي بالوحدة العربية وبالاستقلال ورفض الهجرة الصهيونية. وقد اتسمت المظاهرة بالعنف وأدت إلى استشهاد وجرح عشرات من المتظاهرين.

وفي أيار 1921 قامت صدامات شاملة بين العرب والصهاينة انطلقت من يافا ودامت مدة أسبوع هاجمت الجماهير خلالها العديد من المستعمرات وهاجم الصهاينة مدينة قلقيلية ونهبوها. وكانت نتائج هذه الصدامات استشهاد 47 عربياً ومقتل 48 يهودياً.

وفي آب 1929 قامت هبة البراق التي كان صاعقها استفزازات الصهاينة على حائط المبكى. وقد استمرت الانتفاضة من 14 آب حتى 30 آب وبشكل متقطع حتى 9 أيلول. وقد أدى عنف الجماهير إلى مقتل 133 صهيونياً وجرح 339، كما استشهد 116 وجرح 232 من الجماهير. ولم تتمكن السلطات الإمبريالية من إخماد هذه الانتفاضة إلا بعد أن استقدمت خمسة آلاف جندي بريطاني من مصر ومالطة واستنفرت ست قطع من الأسطول البريطاني في ميناء يافا وحيفا كما أوقفت 120 طائرة على أهبة الاستعداد، وقامت السلطات البريطانية باعتقال ألف عربي، وحكمت بالإعدام على 20 من المناضلين نفذت الحكم في ثلاثة منهم في سجن عكا وهم عطا الزير ومحمد جمجوم وفؤاد حجازي.

وإزداد مستوى تصدي الجماهير نتيجة إفقار الفلاحين وطردهم والبدو من أراضيهم من قبل الصهاينة الذين استولوا على الأرض من خلال السلطة الإمبريالية أو عن طريق "شرائها" من الإقطاعيين.

وتشهد تقارير الإمبرياليين أنفسهم بمواقف مختلف الطبقات في هذا الصراع. ففي تقرير لجنة هايكرافت بعد صدمات يافا 1921 توضح اللجنة أن البدو والفلاحين هم الذين أخذوا زمام المبادرة في الصدمات بينما كانت القيادات تعمل على تهدئة الأوضاع. ويعبر المندوب السامي عن امتنانه للقيادة السياسية "التي بذلت أقصى جهدها لتهدئة الحالة. فلو أن الزعماء السياسيين عملوا على تأجيج نيران الاضطرابات الحالية بدلاً من كبح جماحها فإن البلاد بأسرها كان يحتمل أن تتغمس في حالة من الفوضى وما كان النظام ليعود إلا بأكبر قسط من الصعوبة."

وفي هبة 1929 بينما كان الفلاحون والبدو يهاجمون المستعمرات الصهيونية ويواجهون دبابات وطائرات الإمبرياليين البريطانيين، كانت القيادات الإقطاعية تخذل الجماهير الثائرة وتحاول التهدئة وتصدر البيانات متصلة من عنف

الجماهير كما فعل اثر هبة 1929 كل من موسى كاظم الحسيني والحاج أمين الحسيني وراغب النشاشيبي.

وتكمن قيمة هبة 1929 في تعرية القيادات الإقطاعية وتخاذلها وكشف الترابط العضوي بين الصهيونية والإمبريالية، هذا الترابط الذي عمل عملاء الإمبريالية العرب جهودهم من أجل التغطية عليه.

4. 1930 - 1939:

في بداية الثلاثينات أخذت الرأسمالية الفلسطينية تأخذ ملامحها الأولى خاصة في قطاعي البناء والتجارة الداخلية والخارجية. كما نشأت بعض المشاريع الرأسمالية في القطاع الزراعي خاصة في مجال زراعة الحمضيات. وشهدت هذه الفترة بداية الإنتاج الصناعي ذات الطابع الإنتاجي السلعي الصغير. كذلك نما رأسمال الخدمات والرأسمال المصرفي إذ تأسس البنك العربي 1930 والبنك الصناعي العربي 1935 والبنك الزراعي العربي 1935. ولكن النمو الرأسمالي العربي ظل محدوداً بفضل هيمنة الرأسمال الصهيوني الذي شكل 88% من الاستثمارات الرأسمالية في فلسطين في نهاية هذه الفترة.

وطبعاً رافق النمو الرأسمالي نمو الطبقة العاملة (من 5 آلاف-25 ألفاً بين 1925 و 1935) وجيش العاطلين عن العمل (23 ألف عاطل عن العمل بنهاية 1935) نتيجة إفقار الفلاحين (80% معدم أو فقير عام 1931) والبدو وتدهور وضع بعض الشرائح من الفئات المتوسطة.

وقد أدى هذا التطور إلى ازدياد طاقة القوى المحركة للثورة من عمال وفقراء الفلاحين، وإلى المزيد من مشاركة البرجوازية في القيادة السياسية. وعبر هذا

النمو عن نفسه على الصعيد السياسي بتأليف الفرق الكشفية والنوادي والجمعيات (1935) وبتأسيس الصحف وعقد المؤتمرات الطلابية (1929) والنسائية (1929) ومؤتمرات الشبيبة (1932)، وتأليف الأحزاب في المدن.

وتداخلت البرجوازية الناشئة بالعائلات الإقطاعية وسيطر أبناء هذه الطبقة على التنظيمات والأحزاب الجديدة، فمثلاً ترى أسماء الخالدي والنابلسي والشوا وبندك في قيادة مؤتمر الشبيبة.

وفي إيراد أسماء أبرز قيادات الأحزاب التي شكلت في هذه الفترة، الدليل على طبيعتها الطبقة:

- حزب الأحرار العربي الفلسطيني. حيفا 1930: كان يدعو إلى معاهدة مع البريطانيين تضمن مصلحة البلدين. ضم أبناء عائلات الشقيري والفاهوم وعبد الهادي وعصفور وحواء...
- حزب الاستقلال العربي. 1932: مرتبط بالأمير فيصل.
- حزب الدفاع الوطني. 1934: مرتبط بالإمبريالية البريطانية برئاسة راغب النشاشيبي، وضمت قيادته حسن صدقي الدجاني وعبد الرحمن التاجي وسليمان طوقان والشيخ مصطفى الخيري وعادل الشوا وعيسى العبسي ويعقوب فراج...
- الحزب العربي الفلسطيني. 1935: الحاج أمين الحسيني أبوه الروحي، بقيادة جمال الحسيني وتضم قيادته روك، عنبتاوي، جعبري، دجاني.
- حزب الإصلاح القدس. 1935: مع الحكم الذاتي، تضم قياداته البديري والحسيني والتاجي الفاروقي وعمرو...
- حزب الكتلة الوطنية. نابلس 1935: لم يختلف تكوينه عن الأحزاب السابقة.

وقد أدى نمو القوى المحركة للنضال الوطني إلى نهوض الحركة الجماهيرية وإلى دفع القيادات البرجوازية إلى مواقف متقدمة خاصة لفظياً. وشهدت هذه الفترة نضالات مستمرة ليس ضد الصهاينة فحسب بل ضد الإمبريالية البريطانية أيضاً ابتدأت بهبة 1933 وتوجت بثورة القسام وثورة 1936.

- **هبة 1933:** على اثر ازدياد الهجرة الصهيونية المرتبط بنمو النازية في ألمانيا، وما نتج عنه من إجلاء البدو والفلاحين بالقوة عن أراضيهم قامت المظاهرات في جميع أنحاء البلاد. وعلاوة على شموليتها اتسمت الهبة بالامتداد (سنة أسابيع) والصدامية. فقد قامت بالرغم من حظر الحكومة وكانت القيادات تُدفع إلى الدعوة للمظاهرات مرغمة، وكانت تريدها سلمية إلا أن الجماهير كانت تسلك طريق العنف والصدامية، وكانت القيادات تحاول التهدئة فتعجز وتهرع إلى المندوب السامي معذرة عن عجزها عن القيام بدورها التقليدي ففهي تهدئه الجماهير. وقد كان العمال والفلاحون والبدو والفئات المتوسطة، القوى المحركة للثورة وهم الطاقة الدافعة، بينما كانت القيادات تريد أن تحرك الجماهير، على أن يبقى التحرك ضمن حدود سلمية كأداة للضغط على السلطة من أجل مشاركة القيادات في الحكم، وكانوا يرتعبون من عنف الجماهير ويسعون جاهدين لإجهاض الانتفاضات الجماهيرية. وبالرغم من أن السلطة الإمبريالية تمكنت من إخماد نار الانتفاضة إلا أن النار بقيت تحت الرماد واستمر الغليان الجماهيري وتفجر في ثورة القسام 1935 وثورة 1936.

- **ثورة القسام 1935:** ولد الشيخ عز الدين القسام في جبلة قرب اللاذقية عام 1871 واشترك في الكفاح ضد المستعمرين الفرنسيين في سوريا. حكم على

عز الدين بالإعدام ففر إلى حيفا عام 1922 وابتدأ يخرج إلى الريف ويتصل بالجماهير الفلاحية كما ركز على الفلاحين الذين أفقرُوا ونزحوا إلى المدينة.

بدأ عز الدين تشكيل تنظيم سري خاصة من بين العمال في أحياء التتاك والخشب، وكان من شروط العضوية أن يقتني العضو السلاح على حسابه الخاص وأن يتبرع بما يستطيعه للتنظيم. نظم القسم الثوار في خمس لجان: الدعوة (الإعلام)، التدريب العسكري، العتاد (التسلح)، مراقبة الأعداء (الرصد) والشؤون الخارجية.

اتصل القسم بالحاج أمين 1935 ليحضر للثورة في جنوب البلاد ولكن الحاج أمين أجاب أن الوقت لم يحن للكفاح المسلح وأن الجهود السياسية كفيلة بتأمين حقوق الفلسطينيين!

قرر القسم ابتداء الكفاح المسلح 1935/11/12 وانتقل الثوار إلى أحراش يعبد كبؤرة ثورية لاستقطاب الجماهير. على اثر بعض العمليات المسلحة حوُصر القسم ورفاقه وبعد معركة بطولية استشهد القسم وأربعة من رفاقه بينما أسر أو هرب الباقون.

ترك هذا الاستشهاد البطولي أثراً كبيراً في نفوس الجماهير التي انطلقت لتشجيع جثمانه في مظاهرة مهيبية في حيفا هتفت بسقوط الإمبريالية والصهيونية واصطدمت بالشرطة أما الزعماء فقد تخلفوا عن هذه المظاهرة الوطنية.

إن أهمية ثورة القسم تكمن في أنها أول مبادرة لخوض الكفاح المسلح بشكل منظم، وفي أنها كشفت تردد وعجز القيادات الإقطاعية وانتزعت المبادرة من القيادات التقليدية وأوضحت طريق الكفاح المسلح. وفي ثورة القسم تكمن بداية

ثورة 1936 التي امتدت طيلة ثلاث سنوات والتي سطرت فيها جماهيرنا
أروع آيات البطولة والفداء.

- **ثورة 1936:** إن الظروف الموضوعية التي أدت إلى اندلاع ثورة 1936
تكمن في زيادة حدة التناقض بين الشعب والإمبريالية، فقد ازدادت في السنوات
السابقة للثورة الهجرة الصهيونية إلى فلسطين مما أدى إلى ازدياد طرد
الفلاحين من أراضيهم، كما تردى وضع العمال العرب فكان نصيب 98% أقل
من 11 جنيهاً المطلوبة للعائلة الواحدة وكان دخل 81% أقل من 4.25 جنيه.
كذلك ازدادت البطالة وعم الغلاء الذي وقع عبئاً على الكادحين. حتى
الرأسمالية العربية تدهورت بعض صناعاتها 1935-1936 في وجه المزاحمة
الصهيونية. فبين 15-19 نيسان 1936 جرت اصطدامات بين العرب
والصهاينة في منطقة يافا وتل أبيب وتعطلت حركة البحر والسير والتنقل على
اثر إعلان عمال الميناء وسائقي السيارات العرب للإضراب، فأعلنت الحكومة
منع التجول وحالة طوارئ في كل البلاد.

وجاءت مهاجمة مجموعة القسامي الشيخ فرحان السعدي سيارة صهيونية على
طريق نابلس طولكرم إشارة إلى اندلاع حرب العصابات في كل فلسطين.
وبدأت الجماهير تلتف حول قيادات محلية مما أخاف الزعامات التقليدية،
فتألفت في 25 نيسان اللجنة العربية العليا كجبهة تضم قيادات كل الأحزاب
وتكرس زعامة المفتي، ودعت لإضراب عام (كان مستمراً قبل ذلك بسبعة
أيام) إلى حين وقف الهجرة وبيع الأراضي وقيام حكومة وطنية نيابية.
وتصاعد التحرك الجماهيري بسرعة مذهلة، وإزاء هذا الزخم الجماهيري
سرعان ما أفرزت البرجوازية مؤسساتها السياسية في محاولة لاحتواء الثورة

فأسست اللجان القومية والحرس الوطني 8 أيار 1936 والمؤتمر العام للجان القومية الذي قرر تحت ضغط الفلاحين إعلان العصيان العام. وقبل نهاية شهر أيلول كانت محصلة نضالات الجماهير من عمليات عسكرية وتخريب بالوسائل البدائية على الشكل التالي:

- عشرات عمليات تفجير لأنابيب البترول
- 48 نسف جسور
- 280 حريق
- 22 إعطاب قطار
- 130 قطع خطوط القطار
- 300 قطع أسلاك هاتف وكهرباء
- 200.000 قلع شجرة للصهاينة

ولمواجهة هذه الثورة الجماهيرية العارمة استدعت بريطانيا 4 فرق واستخدمت 20 ألف جندي بريطاني و 5 آلاف شرطي و 15 ألف مقاتل صهيوني هذا علاوة على قوة حدود شرق الأردن التي استخدمت لمطاردة الثوار على الحدود.

إن الزعامة المحافظة التي أرغمت على تبني مطالب الجماهير حفاظاً على زعامتها سرعان ما نفضت يدها من الإضراب خشية على مصالحها الاقتصادية فأعلنت اللجنة العليا موافقتها على إنهاء الإضراب وتوقف الثورة 1936/11/12 على اثر مناشدة ملوك العرب عرب فلسطين "بطلب من السلطات البريطانية" إنهاء العنف "حقناً للدماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها العلية لتحقيق العدل."

ولكن الجماهير استمرت بممارسة العنف بالرغم من استسلام القيادة:

* 30 نيسان 1937 اغتيال مساعد مدير البوليس في حيفا

* 23 آب 1937 اغتيال حاكم لواء جنين

* 26 أيلول 1937 اغتيال حاكم لواء الجليل

وتحت ضغط العنف الجماهيري سحبت بريطانيا مشروع التقسيم الذي كانت قد قدمته لجنة بيل، وفي عام 1939 أصدرت كتاباً أبيض يحدد الهجرة الصهيونية وبيع الأراضي ويعد بالاستقلال بعد 10 سنوات وذلك من أجل تميع الصراع وتهدة الأوضاع في مواجهة الحرب العالمية الثانية. وقد قدمت الجماهير في هذه الثورة العظيمة 5 آلاف شهيد و15 ألف جريح و9 آلاف معتقل، كما هدم لها 5 آلاف بيت.

5. 1940 – 1948:

بالنسبة لنضال الجماهير كانت هذه الفترة فترة انحسار يعود إلى استنزاف الطاقات في ثورة 1936-1939 وإلى غياب القيادات التي تمثل الجماهير. ففي عام 1945 اختارت الحكومات العربية موسى العلمي المعروف بارتباطه ببريطانيا ممثلاً لفلسطين في جامعة الدول العربية. وقد حاول موسى العلمي أن يخلف حزب الدفاع الموالي لبريطانيا بإنشاء المكتب العربي ومن ثم حزب الشعب الذي شمل العديد من الوجهاء المرتبطين ببريطانيا وبالنظام الهاشمي العميل أمثال خلوصي الخيري وأنور الخطيب ويوسف هيكل، كما شمل الوجهاء أحمد الشقيري ورشاد الشوا وأنور النشاشيبي وصالح العنبتاوي. تميزت هذه الفترة باندلاع الحرب العالمية الثانية وبلورة الإدارة العسكرية الصهيونية وانتقال مركز الحركة الصهيونية من بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية (1943) قائدة المعسكر الإمبريالي.

وتحت ضغط الولايات المتحدة اتخذت الأمم المتحدة (29 تشرين الثاني 1947) قراراً بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية. وقد تمكن الصهاينة من إعلان كيانهم وفرضه بقوة السلاح والدعم الإمبريالي، ليس ضمن حدود التقسيم فقط بل على 78% من الأرض الفلسطينية.

ولم تتمكن جماهيرنا التي كان ينقصها القيادة والتنظيم والتسليح من الوقوف في وجه المخطط الصهيوني الإمبريالي. وعقدت الجماهير الآمال على الأنظمة العربية غير مدركة مدى ضلوعها في المؤامرة الإمبريالية.

وبالرغم من نضالات جماهيرنا وتضحياتها في وجه البربرية الصهيونية الفاشية (مثلاً مذبحه دير ياسين في 9 نيسان 1948) وبالرغم من صور الشجاعة والبطولة والتضحية لأبناء شعبنا وبعض قياداته (استشهاد عبد القادر الحسيني في 8 نيسان 1948) فقد تمكن الصهاينة من إعلان كيانهم (15 أيار 1948) ومن طرد معظم شعبنا من المناطق التي وقعت تحت سيطرتهم.

أما ما تبقى من فلسطين فقد اقتسمته الأنظمة العربية المرتبطة بالإمبريالية البريطانية (النظام الهاشمي في الضفة ونظام فاروق في القطاع) الأنظمة التي شاركت الكيان الصهيوني في قمع الجماهير.

6. 1948 - 1967:

تبدأ هذه الفترة بتحطيم الوعاء الاجتماعي الفلسطيني وتشريد جزء كبير من الشعب وانتقال النازحين إلى مواقع الطبقات العربية في البلدان المجاورة وتشابك النضالات السياسية الفلسطينية إلى حد بعيد بتطور حركة التحرر العربية خاصة في البلدان المحيطة.

تنتم هذه الفترة بانسحاب الإمبريالية الفرنسية والبريطانية من الوطن العربي (السويس 57) وترسيخ الكيان الصهيوني المخفر المتقدم للإمبريالية بقيادة الولايات

المتحدة الأمريكية، وبازدياد دعم الاتحاد السوفييتي لحركة التحرر العربية. كما تتسم بنهوض الأحزاب والحركات البرجوازية مثل البعث وحركة القوميين العرب والناصرية.

وقد رفعت هذه الحركات شعارات الجماهير في التحرير والوحدة والاشتراكية ونجحت في استقطاب الجماهير ضد الإقطاع وفي إنهاء الأنماط ما قبل الرأسمالية في العديد من البلدان العربية. وشاركت الجماهير الفلسطينية في هذه التنظيمات والحركات بحماس شديد، وعقدت الأمل بشكل خاص على نظام عبد الناصر الذي اتخذ في مرحلة صعوده دوراً تقدماً في معاداة الإمبريالية وفي الانفتاح على الدول الاشتراكية. إلا أن حرب 1967 كشفت إلى حد بعيد عجز الأنظمة العسكرية، ودعت الجماهير العربية إلى البحث عن طريق آخر.

وقد أدى احتلال الصهاينة لفلسطين على دفعتين عام 1948 وعام 1967 إلى تشريد حوالي نصف الفلسطينيين وتحويل غالبية الفلاحين المشردين إلى عمال، كما أدى الاحتلال إلى هيمنة رأس المال الصهيوني وتدهور الرأسمال العربي ما عدا الرأسمال المرتبط برأس المال الصهيوني، كما أدى إلى إفقار الفلاحين وتحولهم إلى عمال عند رأس المال المسيطر. كذلك أدى إلى تدهور الحرف وتحول جزء من الفئات المتوسطة إلى عمال، وازداد استغلال السوق العربية والأيدي العاملة الرخيصة وتكثف استغلال العمال عن طريق الضرائب والغلاء.

ولا يمكن فهم استغلال الكيان الصهيوني بالنظر إلى فلسطين فقط، لأن دور هذا الكيان هو مخفر للإمبريالية في كافة الوطن العربي لتأمين استمرار استغلال ثروات وطننا خاصة النفطية، واستغلال السوق العربية وقوة العمل العربي.

7. 1967 - 1976

إذ تزعمت المؤسسات العسكرية النضال في العديد من البلدان العربية وبدأ الفلسطينيون خاصة من الفئات المتوسطة يسعون لتشكيل تنظيم مسلح يقوم بعبء النضال الفلسطيني ضد الصهاينة، فكانت انطلاقة فتح المسلحة في 1965/1/1

ولقد أعطت هزيمة الأنظمة العسكرية في 1967 دفعاً كبيراً لحركة الكفاح المسلح الفلسطيني. غير أن الأنظمة العربية كانت تدرك جيداً خطورة نجاح الكفاح المسلح في مركز التناقض في الوطن العربي، فسعت هذه الأنظمة باستمرار لتصفية الكفاح المسلح (الأردن 1970) أو لاحتواء هذا النضال الجماهيري عن طريق ربطه بهذه الأنظمة، فشكلت سوريا الصاعقة، والعراق جبهة التحرير العربية، ومصر منظمة فلسطين العربية والهيئة العاملة اللتين اندمجتا في فتح بعد 1970. وتحاول معظم الدول العربية خاصة السعودية ومصر وسوريا احتواء حركة فتح وعزلها عن الجماهير العربية وإفراغها من مضمونها الديمقراطي الثوري.

كما يؤثر النضال الفلسطيني في حركة التحرر العربية يتأثر إلى حد كبير بموقف الأنظمة العربية المحيطة بالكيان الصهيوني. وتواجه منظمة التحرير الفلسطينية بينيتها الحالية أزمة عميقة، إذ تتجه أنظمة البرجوازية إلى الارتباط بالإمبريالية وإلى المساومة معها، فالإمبريالية غير مستعدة للمساومة مع الفلسطينيين وذلك لحدة التناقض مع الإمبريالية في الساحة الفلسطينية، مما يدفع النضال الفلسطيني بسرعة فائقة نحو التجذير.

وكلما نما النضال الفلسطيني وتجزر كلما ارتفعت ليس فقط الصهيونية والمراكز الإمبريالية بل أيضاً الأنظمة العربية الرجعية والبرجوازية المرتبطة، وكلما

تضافرت جهودها بالرغم من تناقضاتها الثانوية لتصفية الثورة الفلسطينية عسكرياً وسياسياً.

ولكن جبهة القوى الثورية والديمقراطية العربية، بانتهاجها خطأ سياسياً صحيحاً وأساليب صحيحة لتجسيد هذا الخط، ستتمكن من سحق أعدائها وتحقيق النصر في عصرنا هذا، عصر انتصار الشعوب.

خاتمة:

لقد رأينا كيف أن القيادات الإقطاعية والبرجوازية إما تواطأت مع الإمبريالية أو عجزت عن إنجاز المهام الوطنية. أما الطبقة العاملة فبالرغم من حداثة عهدها كانت مع الفلاحين القوى المحركة للنضال الوطني، ولكن الأحزاب التي ادعت تمثيل الطبقة العاملة بالرغم من مساهمتها في النضال فقد عجزت عن قيادته على طريق حل التناقض الرئيسي بين الشعب والإمبريالية.

وتعود نشأة الحزب الشيوعي في فلسطين إلى عام 1919، إذ تأسس حزب العمال الاشتراكي في الأوساط اليهودية. وحضر الحزب المؤتمر الثاني للكونغرس عام 1920 وهاجم الاستعمار البريطاني والصهيونية. وفي عام 1922 تخلص الحزب من أعضائه الصهاينة وسمي الحزب الشيوعي الفلسطيني.

وقد دعا الحزب عام 1923 إلى العنف ضد الاستعمار وصنائه أغنياء العرب مما أدى إلى طرد الهستدروت للأعضاء الشيوعيين. وفي عام 1924 رفع الحزب شعار تعريب الحزب، ولكنه بقي في عزلة عن نضال الجماهير العربية ولم يدرك أن هبات الجماهير العربية ضد المستوطنين "اليهود" هي ذات طابع تقدمي معاد للإمبريالية وان لم تفرق القيادات الإقطاعية دوماً بين اليهودية والصهيونية.

انتقد الحزب نفسه لتقصيره الشنيع في المشاركة في هبات البراق 1929، وطهر صفوفه ثانية من العناصر المشبوهة بميولها للصهيونية. واهتم بتنظيم العرب وأصبح

السكرتير العام منذ 1933 عربياً، وكان على كل مرشح لعضوية الحزب أن يقر "أن هبة 1929 كانت تعبيراً عن ثورية الجماهير العربية" مما أدى إلى انخفاض أسهمه بين اليهود.

وقد حدد الحزب أهداف النضال في مؤتمره السابع عام 1930 بتحرير البلاد القومي والاجتماعي من الإمبريالية البريطانية ومن الصهيونية ومن طبقة الأفندية. وبالرغم من هذه التطهيرات ظل الحزب بحكم تكوينه في الأوساط اليهودية يميل إلى الصهيونية مما أدى إلى انسلاخ المجموعة العربية عن الحزب الشيوعي الفلسطيني عام 1943 وتكوين عصابة التحرر الوطني.

وبعد تقسيم فلسطين عام 1948 تشكل الحزب الشيوعي الأردني والحزب الشيوعي قطاع غزة والحزب الشيوعي الإسرائيلي. وفي عام 1965 انشقت ركاك عن الحزب (ماكي) لأنه انتهج نهجاً صهيونياً واضحاً... وضمت ركاك كل العناصر العربية. تمكنت ركاك من قيادة النضال السياسي العلني ضد الصهيونية في المناطق المحتلة 48، كما تمكنت الأحزاب الشيوعية في الضفة والقطاع خاصة بعد احتلال 67، من أن تلعب دوراً هاماً في النضالات السياسية ضد الاحتلال. إلا أن دور هذه الأحزاب كان شبه معدوم في النضال المسلح ولم تتمكن من قيادة نضال الجماهير لحل التناقض مع الإمبريالية.

إلى ماذا يعود عجز هذه الأحزاب؟ طبعاً يعود أساساً إلى أن خطها السياسي لم يكن خطأً شيوعياً صحيحاً:

1. فبحكم نشأة الحزب في الأوساط اليهودية لم يتمكن من حسم الموقف من الصهيونية مما دفعه في بعض الفترات إلى إهمال التناقض القومي مع الإمبريالية وتحديد التناقض الرئيسي بشكل خاطئ كتناقض طبقي محلي.
2. لم يمارس الحزب الكفاح المسلح ولم ينتهج طريق حرب الشعب، الطريق الوحيد لحل التناقض العدائي مع الإمبريالية.

3. لم يأخذ الحزب الشيوعي موقفاً صحيحاً من الحركة الشيوعية العالمية، أي موقف الوحدة مع الاستقلالية.

4. اتخذ الحزب موقفاً خاطئاً من القضية الفلسطينية بتأييد التقسيم وبعدم إدراك مركزية فلسطين والنضال ضد الصهيونية في حركة التحرر العربية.

5. لم يدرك الحزب ارتباط فلسطين الجدلي ببقية الوطن العربي وخاصة في الساعات المحيطة، مما أدى إلى أخذ مواقف غير سليمة من الأمة العربية والوحدة العربية.

ويمكننا اليوم أن نستفيد من كل النواحي الإيجابية في نضالات شعبنا وأن نسعى للتخلص من النواحي السلبية وذلك من أجل تطوير نضالنا والمساهمة في بناء الإدارة القادرة على إنجاز أهداف جماهيرنا في التحرير والوحدة وإنهاء الاستغلال الإمبريالي في هذه المرحلة من نضالنا مرحلة الثورة القومية الديمقراطية.

أبو عمر
1976